اجتهادات
على الفكر جَنَت التكنولوجيا

لو أن إدجار موران عاش فى القرن الـ 18، أو حتى الـ 19، لوجد الاهتمام الذى لا يحظى، وغيره من المفكرين والمثقفين، إلا بقليلٍ منه فى زمننا. هذه خلاصةُ عدة تعليقات على اجتهادى 8 أغسطس (لأنه ليس كيسنجر) و22 أغسطس (ماذا حدث لحرية التفكير).

كان تطور التكنولوجبا محدودًا, ولم تكن هناك وسائلُ اتصالٍ وتواصل تقريبًا فى القرن الـ 18. فلا راديو، ولا تليفزيون، ولا هاتف، ولا شبكة إنترنت تزداد مواقعُ التواصل عبرها بشكلٍ جنونى. وكانت الصحافةُ فى مهدها بدائيةً ومحلية. ومع ذلك عُرف مئات المفكرين والمثقفين خارج بلادهم، وذاعت شهرتُهم فى أوروبا مركز الفكر والثقافة فى ذلك العصر. أكثر من 90 فى المائة من الكتب التى تصدر فى العالم كله كانت تُطبع وتُنشر فى

أوروبا، خاصةً فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا. وحظى كثيرُ من مؤلفيها باهتمامٍ بالغ فى مرحلةٍ كان العطشُ فيها إلى المعرفة كبيرًا ومتزايدًا.

كانت شهرةُ المفكرين والكُتّاب (لم تكن كلمةٌ المُثقف قد عُرفت فى ذلك الوقت) نخبوية، إذ لم يكن عصرُ الجماهير الغفيرة قد بدأ. ومع ذلك تبين عندما اندلعت الثورةُ الفرنسية أن أثر المفكرين التنويريين كان قويًا فى قطاعٍ مُعتبرٍ من جمهورها0 كانت هناك نواد للقراءة ومنتديات ثقافية للنقاش وتبادل المعلومات. وكان العائدُ من سفرةٍ إلى بلدٍ آخر يروى ما عرفه عن كتب أُصدرت، أو مفكرين قابلهم. وهكذا عُرف فولتير مثلاً, ونال شهرةً واسعةً فى أوروبا. وأسهم فى هذه الشهرة انتقالُه عبر القارة كلما خشى بطش السلطات فى البلد الذى يوجد به. غادر موطنه فرنسا مثلاً إلى بروسيا حين توسم خيرًا فى ملكها فريدريش الثانى. ولو أن فولتير يعيش فى عصرنا، لما نال اهتمامًا مماثلاً لما حظى به فى زمنه بدون أى وسائل اتصال.

ولكن هل العيب فى هذه الوسائل نفسها، أم فى كيفية استخدامها، أم فى التغير الجذرى الذى حدث فى أنماط الحياة وهوى بالفكر؟ من الطبيعى أن تختلف الإجابات، وأن تُطرح أسبابُ أخرى لتراجع المعرفة بأهل الفكر فى زمن ثورة الاتصالات؟.